نجيب الريحانى

□ أبكانا ضحكاً.. وأضحكنا بكاءً

- ترجم معظم أعمال «موليير» وقدمها في مسرحياته
- عايَرَتْـهُ «بديعة مصابني» بأنهـا صاحبة فضل عليه فطلقها
- الدنيا على كف عفريت أضاعت منه البكاوية
- رغم حياته البائسة ظل هدفه الأول إضحاك الناس
- رحل قبل أن يشاهد قمة إبداعه في غزل البنات

لم يكـن «نجيـب الريحانـي» فناناً عادياً. بـل كان من طراز خاص، جمع في أدائه قدرة عجيبة ربما لم يتميز بها سواه.. كان حين يضحكنا يبكينا أيضاً، وفي نفس اللحظة جمع الابتسامة مع الألم، حتى صوته جمع في نبراته الحزن والفرح معاً.

وأنا أعد هذا الكتاب فرض اسمُ «نجيب الريحاني» بين صفحات نجومه بتراثه الفني الذي مازال باقياً ومؤثراً في مختلف الأجيال، فرغم مرور قرابة الستين عاماً على رحيله مازلنا نلتف حول أعمال هذا الفيلسوف الكوميدي الضاحك الباكي صاحب مدرسة الكوميديا الأولى في العالم العربي، مازالت أفلامه ومسرحياته تدرس، وتلاميذ «الريحاني» في كل مكان يسيرون على نهجه ويحفظون له العهد.

إسمـه الحقيقـي هو: نجيب أبـو إلياس ريحانة، ولد سـنة ١٨٩٠في حـارة «درب مصطفى» بباب الشـعرية بالقاهرة من أب ينحـدر مـن أصل عراقي كان يشـتغل بتجارة الخيـول. أما أمه فكانـت مصريـة من «نجع حمادي» بصعيد مصـر.. أدخله والده مدرسـة الفرير الفرنسية. وكان لهذه الدراسة أثر كبير في حياته، حيث أتقن اللغة الفرنسية التي كانت أحد أسباب شهرته الفنية، فقد ترجم معظم أعمال الكاتب الفرنسي الساخر «موليير» وقدمها في مسرحياته حيث أثرت أعمال هذا الكاتب على شخصية الريحاني بشكل كبير.

لقد عشـق «نجيب الريحاني» فـن التمثيل منذ التحق بفرقة المدرسـة، ولم يغادره هذا العشـق حتى بعد تخرجه من مدرسة

الفرير وتعيينه موظفاً في بنك التسليف الزراعي. وفي نفس الوقت عمل ممثلاً في بعض فرق الهواة، ولأن هذا العمل كان يستوجب سهره إلى ساعات متأخرة من الليل مما اضطره إلى التغيب عن العمل أياماً كثيرة. فكانت النتيجة أنه تم فصله من وظيفته. وهنا أصر خاله على أن يصطحبه معه إلى صعيد مصر حتى يبعده عن القاهرة وأجواء التمثيل لكنه كان يسلك كل الطرق ليعود إلى القاهرة حتى نجح عن طريق بعض الأصدقاء في أن يعود مرة أخرى للعمل في بنك التسليف الزراعي، وهنا لعب القدر لعبته فقد كان زميله المجاور له في المكتب هو «عزيز عيد» وهو أيضاً عاشق التمثيل، فجمع بين الاثنين التواجد في مكان عمل واحد مع هواية التمثيل، وكان لابد أن يسعى الاثنان لإشباع هذه الهواية، فكانا يذهبان إلى دار الأوبرا ويعملان «كومبارس» مع الفرق الوطنية في المسرح. وسرعان ما التحقا بالعمل في بعض الفرق المسرحية. وللمرة الثانية تم فصل «نجيب الريحاني» من العمل في بنك التسليف الزراعي، ومعه أيضاً زميله «عزيز عيد».. وهكذا فقد الأمل في العودة إلى العمل الوظيفي رغم محاولات ووساطات خاله الكثيرة. وأيضاً جهوده لإثناء ابن شقيقته عن السير في طريق التمثيل والعمل مع المشخصاتية. ولكن «نجيب» كان قد اختار هذا الطريق حيث التحق بفرقة «إسكندر فرج» إلا أنه تركها بعد أسابيع قليلة ليعمل في فرقة ثانية، ثم في فرقة ثالثة. ويقال إنه عمل في جميع الفرق المسرحية التي

كانـت موجودة في ذلـك الوقت. ولكن ولأن هـذه الفرق كانت تسـند إليه بعض الأدوار الكوميديـة القصيرة قرر أن يكون فرقة خاصة لحسابه.

مسرح فى جراج

ومن هنا كانت بداية مشـوار «نجيـب الريحاني» الفعلي مع فـن التمثيل، هذا المشـوار الذي بذل فيه كل جهده واسـتغرق سـنوات عمره كلها.. كسب كثيراً، وخسـر كثيراً أيضاً لكنه في الحالـة الأولى لم يتعال على الفـن. وفي الحالة الثانية لم يتنازل عن الفن. فعندما فكر أن تكون له فرقة مسرحية خاصة به كانت المشـكلة الأولى هي وجود المكان الذي تعمل عليه الفرقة. ونظراً لضيق ذات اليد لم يجد لهذه المشـكلة سوى أن يؤجر جراجاً في حي الفجالة. ويحوله إلى مسـرح كانت خشبته عبارة عن بعض الطاولات المرصوصة بجوار بعضها. أما الكراسـي فقد كان على كل مشـاهد أن يحضر كرسـيه معه. وأول مسرحية قدمها على هذا المسـرح بعنوان «خللي بالـك من إبليس» وأخرجها له زميل عملـه في البنك «عزيـز عيد». وكان إيـراد كل ليلة لا يزيد عن ٥٠ أو ٦٠ قرشـاً يقسـم مناصفة بعد خصـم المصروفات وإيجار الجراج. وكان طبيعياً ألا تسـتمر هذه التجربة لفترة طويلة فبعد حوالي شهر ونصف اضطر «نجيب أبو إلياس ريحانة» إلى إغلاق أبواب هذا المسرح والعودة للعمل في بعض الفرق الأخرى. وبمرور

الوقت أخذ اسمه يلمع كممثل كوميدي فريد خاصة بعد أن ابتكر شخصية أطلق عليها اسم «كشكش بيه» «عمدة كفر البلاص»، تلك الشخصية التي أظهرت عبقرية هذا الفنان، والتي انتقد من خلالها الأوضاع التي كانت سائدة في المجتمع في ذلك الوقت؛ فـ«كشكش بيه» عبارة عن شخصية عمدة في الأرياف يبيع محصول القطن، وينزل إلى القاهرة ليروح عن نفسه في الملاهي الليلية، وقد أحبه الناس في هذه الشخصية وحقق من خلالها نجاحاً كبيراً وارتبط باسمه على مدى حوالي ١٣ سنة، ومعها اختار «نجيب أبو إلياس ريحانة» اسمه الفني الذي اشتهر به وهو «نجيب الريحاني».. ويتواصل النجاح حتى قرر أن يُكون فرقة تمثيلية تحمل اسمه الجديد، وقد حققت هذه الفرقة بعض النجاحات إلى أن قدمت مسرحية بعنوان «حَمار وحلاوة» جاءت بإيرادات خيالية لم يسبق أن شهدها المسرح في ذلك الوقت، وبعد هذه المسرحية التقى «نجيب الريحاني» بالكاتب المؤلف «بديع خيري»، واستمر التعاون الناجح بينهما على مدى خمسة وثلاثين عاماً قدما خلالها عدداً كبيراً من المسرحيات الهادفة التي تعري المجتمع وتفضح مشاكله.

مواقف محزنة

وعلى رغم الكم الكبير من المسرحيات والأفلام الكوميدية التي قدمها «نجيب الريحاني» فإن المقربين منه كانوا يعرفون أنه يحمل

أحزانـاً كثـيرة. وأن هذا الفنان الذي يُضحـك الناس لم يجد من يضحكـه، فقد كانت حياته مليئة بالمواقف المحزنة، وكانت أول هـذه الأحزان عندما طردته عائلته مـن البيت لأنه عمل بالتمثيل حيث كان الممثل في ذلك الوقت ليس له قيمة في المجتمع، ويُنظر إليه نظرة دونية، فعاش «نجيب» بعيداً عن أسرته يترقب أخبارها من الجيران والأصدقاء، وقد شاءت الأقدار أن تغير موقف الأسرة، وذلك عندما كانت أمه جالسـة في «الترام» فسـمعت مجموعة من النـاس يتحدثون عن ابنها «نجيـب الريحاني» وإبداعاته، وأثنوا عليه كثـيراً، فتأثرت أمه كثيراً بالعبـارات التي سمعتها فقامت وقالـت للركاب بـكل فخر واعتزاز إن «نجيـب الريحاني» الذي تتحدثون عنه هو ابني، ومنذ ذلك اليوم عاد الريحاني إلى أحضان أمـه التي لم تعش معه طويـلاً في قصره الذي امتلكه بحي حدائق القبة.. وماتت.

نساءٌ في حياته

قدم «الريحاني» أول مسـرحية استعراضية هي «حَمار وحلاوة» فحققت المسـرحية نجاحاً كبيراً واشـتركت معه الفنانة والراقصة الفرنسـية «لوسي» التي أحبها «الريحاني» حباً عنيفاً إلا أنها بعد عرض المسـرحية عادت إلى فرنسا واختفت من حياته. وسافر إلى فرنسا ليعود بها لكنه فشل وظل يحمل حبها في قلبه وكان يبكي كلما سمع اسمها أو شاهد صورتها.

وكان «الريحاني» شـديد الاعتزاز بنفسه، يحافظ على كرامته، فقد عرضت عليه «بديعة مصابني» العودة إليها بعد انفصال دام أكثر من ١٥ عاماً حيث تعرفت عليه "بديعة" وقدمت معه مسـرحيات «الليالي الملاح» و«الشـاطر حسن» و«أيام العز»، إلا أن «الريحاني» قدم مسرحية «ريا وسكينة» ولكن المسرحية فشلت فوقفت «بديعة» مـع «الريحاني» وفرقته وأمدته بالمال فتزوجها «الريحاني» إلا أن «بديعة» ذكرته بأنها صاحبة فضل عليه فرفض «الريحاني» العودة إليهـا وطلـق «الريحاني» «بديعة» قبل وفاتـه بعامين ولم ينجب منها أولاداً.

«البكاوية» على كف عفريت

ومـن المواقـف الغريبة والمؤلمة الـتي أثرت كثيراً في نفسـية «نجيـب الريحاني» عدم حصوله علـى «البكاوية»، فعندما منح الملك «يوسـف وهبي» لقب البكاوية شعر نجيب الريحاني بكثير من المرارة بسـبب هذا التجاهل لدوره الكبير الذي كان يؤديه في خدمة المسـرح من أجل إسـعاد الجماهير، وأحـس بهذه المرارة صديقـه وزميله «سـليمان نجيب» الذي كانت لـه علاقة طيبة بالقصـر الملكي فاسـتطاع إقناع رجال القصر بـأن يقدم «نجيب الريحانـي» فصلاً من فصـول إحدى مسـرحياته بالقصر الملكي في عابدين، وكان «أحمد حسـين» باشـا رئيـس الديوان في ذلك الوقت مقتنعاً هو و«سليمان نجيب» بأن الملك سينعم على «نجيب

الريحانـــي» برتبة «البكاويـــة» بعد تقديم هذا العـــرض. واختار «الريحاني» تقديم الفصل الثاني من مســـرحيته «الدنيا على كف عفريت» الذي يعرض تفاصيل الحياة المتواضعة والبسيطة جداً في الحارة المصرية، وبكل ما يحدث فيها خلال حياة أهلها المعيشية اليومية، ولم يعجب هذا الملك. وذهب «ســـليمان نجيب» ليؤنب «نجيب الريحاني» على ســـوء اختيـــاره، وأنه بذلك أضاع فرصة الحصول علـــى «البكاوية»، فقال «الريحانـــي»: إن الملك يعيش حياته وســـط القصـــور والأندية التي يذهب إليها عابراً الشـــوارع العامـــة والميادين ولا تُتاح لـــه الفرصة أن يدخل إحدى الحواري الشـــعبية التي تعيش فيها الغالبية العظمى المطحونة من شـــعبه الذي يحكمه، وقد قصـــدت تقديم هذا الفصل حتى يعرف الملك شعبه على حقيقته.

وبالفعل لم يحصل «الريحاني» على «البكاوية»، وقد علق على ذلـــك قائلاً: «إنني لا تهمـــني «البكاوية» ولا زعـــل الملك.. المهم عنـــدي هو رضاء الناس والجماهير»، وكانت هذه الواقعة دافعاً أن يؤلف مع «بديع خيري» مسرحية «حكم قراقوش» التي صور فيها ظلم الحاكم المستبد وثورة الشعب عليه.

حافظ القرآن

مواقـــف غريبة كثيرة تضمنها حياة هذا الفنان العبقري. فعندما اختفى أخوه الأصغر «جورج الريحاني» حزن حزنا شـــديدا. وظل

يبحث عنه مدة طويلة إلا أنه لم يعثر عليه.. وقد مات «نجيب الريحاني» قبل أن يكتشف سر اختفاء أخيه الذي عرفته الشرطة فيما بعد، حيث اعتنق جورج الإسلام وغير اسمه إلى «محمد الريحاني» ولذلك هرب خوفاً من غضب الأسرة و«نجيب الريحاني».. ولكن «جورج» لو كان قد عرف موقف أخيه الأكبر «نجيب» من الإسلام ما خاف وما هرب؛ لقد حفظ «نجيب الريحاني» القرآن بعد أن قرأه مترجماً باللغة الفرنسية عدة مرات، وكثيراً ما قال إنه تعلم من القرآن الصبر والحكمة، والزهد في الدنيا، وذات يوم ذهب للإمام المراغي شيخ جامع الأزهر فسمع صوتاً جميلاً يقرأ القرآن فسأل عن هذا الرجل فقالوا له: إنه الشيخ «محمد رفعت»، فبدأ يوالي سماع القرآن من الشيخ «محمد رفعت» بمسجد «درب الجماميز» وأصبح صديقاً حميماً له وكان يقضي معه معظم أوقات فراغه حتى أن الكثيرين اعتقدوا أن «نجيب الريحاني» دخل الإسلام قبل وفاته.

غزل البنات

ولأن العصر الذي عاش فيه نجيب الريحاني كان زمن الفن الجميل. فقد كان يتابع رحلة صعود ليلى مراد وأنور وجدي. وكثيراً ما تمنى أن يشاركهما أحد الأفلام، وفي لقاء صنعته الصدفة تقابل «الريحاني» و«ليلى مراد» على سلم العمارة التي كانا يسكنان فيها. وبعد تبادل التحية وكلمات الإعجاب المشتركة بينهما قال

الريحاني لليلى مراد: «نفسي أعمل معاكي فيلم ..» فردت على الفور وقالت: «وأنا كمان يا أستاذ..»، وافترقا ثم ذهبت ليلى مراد لتزف الخبر في فرحة لأنور وجدي الذي التقطه بعقلية التاجر الشامي الشاطر، وأسعده أن ينضم الريحاني صاحب الجمهور الكبير إلى فيلمه الجديد «غزل البنات» واستطاع الريحاني في هذا الفيلم أن يجمع بين النقيضين؛ البسمة الحانية والدمعة الساخنة في أداء عبقري تؤرخ له السينما العربية، ويضاف إلى سجله كأحد عباقرة التمثيل، فكان هو الممثل الوحيد الذي أبكانا ضحكاً وأضحكنا بكاءً..

وقد شاءت الأقدار أن يرحل «نجيب الريحاني» عن دنيانا دون أن يشاهد آخر إبداعاته «غزل البنات»..

أستاذ حمام
نحن الزغاليل